

منطق معكوس

إذا اردنا تلخيص المهمة المطروحة امام لجنة المناير ، قلنا انها البحث عن أفضل الطرق التي يتم بها اختلاف الراى السياسى : أو — بعبارة موجزة دالة — هي أن يقول أعضاء اللجنة بعضهم لبعض: تعالوا نناق على كيف نختلف : لكن اختلاف الراى لا يمكن حصره قبل وقوعه ، لانه اختلاف وثيق المصلحة بالمشكلة المطروحة للحل وطبيعتها ، فقد تكون المشكلة الطارئة مما يتفرع عن التطبيق الاشتراكى وهنا يجيء اختلاف الراى بين طرفين واعتدال ، أو قد تكون المشكلة مما يتصل بالاتجاه العام فى السياسة الخارجية ، فيجىء اختلاف الراى بين يمين ويسار ، أو قد تكون خاصة بتنظيم الأسرة أو بقانون الأحوال الشخصية ، فيجىء اختلاف الراى بين جسد وتغير ... وهكذا ، فليست المسألة مرتبطة فى الأساس بأنواع العمل التي تؤديها الفئات المختلفة ، بقدر ما هي مرتبطة بالطريقة التي يتجه نحوها الراى فى حل مشكلة يمينها ، نشأت فعلا ، وسطلب الحل فعلا ، فإذا كان الفلاحون ، أو العمال — مثلا — على رآى واحد متجانس فى طرائق الحل ، فليس هنالك ما يبتغى أن يشترك معهم فى الراى غيرهم من سائر الفئات ، بل يدل أن حزب العمال فى بريطانيا ، فيه أعضاء لم يخرجوا من صفوف العمال ، ولكنهم يشاركونهم وجهة النظر .

فكان المنطق المستقيم يقتضى أن نرجأ هذه اللجنة أو ما يشبهها ، فنعتقد بعد ظهور المشكلات لا قبل ظهورها ، فحين لا نعلم مقدما أنواع المشكلات القومية التي ستنشأ لنا على الطريق ، والتي إذا ما نشأت غربا استدعت غربا من اختلاف الراى لا سبيل الى التنبؤ بها قبل وقوعها ، وبالتالي فلا سبيل الى تحديد « المناير » المطلوبة عندئذ ، وإذا اردت مثلا قريبا ، فخذ مشكلة المناير نفسها ، فمن ذا كان يتوقع — عندما أطلقت هذه الكلمة لأول مرة — كل هذا الخلاف فى وجهات النظر ؟

فإذا قيل : ان الاختلاف الذي نعيه ليكون أساسا لإقامة المناير ، هو اختلاف « المبادئ الأساسية » نفسها ، لا الاختلاف على حلول المشكلات التفصيلية التي نظهر آنا وتخفى آنا ، كان فى هذا القول ما ينتضى الزعم وهو أننا نعيش تحت تكراره كل يوم ، وهو أننا نعيش تحت مظلة التحالف بين الفئات ، وماذا يعنى هذا التحالف الزعوم إذا لم يكن يعنى الاتفاق على المبادئ الأساسية المشار إليها ، حتى وان تعددت بعد ذلك آراء المواطنين فى طريقة التطبيق — وأقول « التحالف الزعوم » — لأن لى رأيا فى فلسفة التحالف هذه ، ليس مكانه هنا ، ولا زمان التعبير عنه هو الآن ، حتى لا نزيد من بلبلة الفكر ، ولدينا منها الآن ما يكفينا ..



اننا حين نجلس الآن لترسيم تصميمانظريا مسبقا لتشكيل الحياة السياسية ، كما كمن يخطط تصميميا لمهارة سكنية ، دون أن يكون لديه العلم بظروف السكان ، أو كما كمن يعد القمص للمصيد، دون أن تكون لديه الفكرة السابقة عن نوع صيده، فربما جاء قبلا لايتسعله القمص، أو جاء فار غير جدير بالقمص .

أن الشكل الذي يقام ليناسب مع اختلاف الآراء : لابد أن « يفصل » على الأجسام القائمة بالفعل : وليس هو كالإلباس الجاهزة نضعها مقدما قبل أن نبين أحجام الأجسام التي ينتظر أن ترتديها ، ومن هنا رأينا الأحزاب في كل بلاد الدنيا التي يحسب حسابها ، وفي جميع الحالات - حتى حالات الحزب الواحد - تنشأ استجابة لمواقف فطعية حدثت ، وانقضت أن يقام لها شكل سياسي يناسبها ، أي أن الشكل السياسي ينشأ « بعد » الموقف الفعلي لا « قبله » ، حتى انصادنا الاشتراكي نفسه نشأ استجابة لتطور معين في مجرى الحوادث ، وإلا فلماذا تحولنا من «هيئة التحرير» إلى «الاتحاد القومي» ثم إلى «الاتحاد الاشتراكي العربي» ، إلا أن يكون هذا التحول نتيجة لما حدث لا مقدمة سابقة عليه . أما بعد هذا كله ، فاني أقول أن مشكلة التناهر هذه إنما هي مشكلة خلقناها نحن، هروبا من الاعلان الصريح بقيام الأحزاب، ثم توهمنا أنها مشكلة حقيقية نتحدثنا عنها ، كما كان يحدث لنا ونحن صفار، حين كنا نمتد قطعة من خيط - ثم نهدي أنفسنا بفكها دون أن نقطع الخيط، وهكذا فعلنا الآن : قلنا « منابر » داخل الاتحاد الاشتراكي ، فلما تبين ما في أفكرك من غموض وتعميد ، شكلنا لجنة للتنسيق طريقا للخلاص ، مع أن مواجهة الأمر مواجهة صريحة أمينة ، تنتهي بنا إلى احدا مريمين لا ثالث لهما :

فأما نظام ذو رأي واحد ، كالنظام القائم الآن ، دون أن نصححه على أنفسنا يومهم المتناهر داخل هذا النظام، وأما أحزاب تنشأ نابعة من تكاملات الرأي الفعلية التي لابد أن تحدث بعد أن يتبلور الاختلاف بين مجموعات الناس في طريقة معالجتهم للمشكلات التي تنشأ على الطريق حيننا بعد حين .

الدكتور زكي نجيب محمود